الدكتور زكي مبارك

في سنتريس وفي الأزهر وفي باريس
(أُلقيت في حفلة تكريمه بمسرح الهمبرا بالقاهرة)

تحت عين الصباح والأنوارِ
ورقيق الأنداءِ والأسحارِ
في حمى سنتريس شبَّ غلامٌ
شاعريُّ الكلامِ والأنظارِ
أزرق العين هادئٌ هدأة البحر
بعيد الرضى! بعيد القرارِ!
ساهم يلمح السحائب في الأفق
بعينٍ عميقةِ الأغوارِ

* * *

شبَّ في جيرة النسائم والزهر
وفي صحبة الغديرِ الجاري
ونضيرِ الحقول والعشب المخضلِّ
يكسو شواطئَ الأنهارِ
ومصيخاً إلى غناءِ السواقي
شاكياتٍ سواخرَ الأقدارِ
باكياتٍ على الصبا والأماني
والهوى والنوى وبعدِ المزارِ
غير أن الذي شكا خطبه الأهـ
ـلُ وأمسى حديثَ جارٍ وجارِ
انَّ ذاك الفتى الوديعَ الظهورَ الـ
ـقلب في رقة النسيم الساري:
مغرمٌ بالعصا! فلوَ خلف سورٍ
لتخطى شواهق الأسوارِ
ولأجل العصا سطا[1] على الافرع الخضـ
ـراء زانت بواسق الأشجار

ولأجل العصا سطا[٢] على خشب البيـ
ـت، طموحاً حتى لِباب الدارِ
ولو أنَّ العصيَّ عزَّت عليه
لتمنّى حتى عصا التسيارِ

* * *

ان تلك العصا لرَمزٌ على القو
ةِ في قلب مارِدٍ جبَّارِ
لا يرى القرية الصغيرة كفؤاً
لكبار الآمال والاوطارِ
ساخراً من هدوئها مستعدّاً
لصراع الخطوب والأخطارِ
أين يمضي؟! للأزهر الشامخ
الرأس، القويّ الباقي على الأدهارِ
مطلع عبده وسعداً ورمز المجـ
ـد والبأس والعلى والفخارِ

* * *

فرح الأهلُ بالغلام الذي صا
ر حديثاً في ندوة السُّمارِ
عمّموه وقفطنوه فأمسى
أملَ القومِ، فارس المضمارِ
ومضى يطلب العلوم وحيداً
موحشاً قلبهُ، غريبَ الدار
ناظراً في هوامشٍ تأكل العقـ
ـل وتبلي نواضر الأبصار
لا يبالي الطوىٰ ولا يحفل الأقدا
ر جاءت بكل أمرٍ ضاري
لا يبالي غداة يصغي الى الشيـ
ـخ وللشيخ هالة من وقارِ:

أحصيرٌ ممزقٌ أم حريرُ
مقعدٌ للمجاهدِ الصبَّارِ
آهِ من هاته الشدائدِ فهي النـ
ـار تبلو القلوبَ في الأخيارِ
إنَّ قلبَ العظيم ياقوتةً تسـ
ـمو سموّاً وتزدهي بالنارِ!
أي شيء في الدهر كالألم الجبا
ر يجلو ضمائرَ الأحرارِ؟!

* * *

عجبي من «مجاور» ضاق بالأز
هرِ واحيرة النفوس الكبارِ!
ثم أمسى مطربشاً واكتسى البذ
لة ما بين ليلةٍ ونهارِ
ثم ضاقت بهمهِ مصرُ فاشتا
ق لغير الأوطانِ في الأمصارِ
ضمَّ أشياءه اليه، وأضحى
في سفينٍ تجوبُ عرض البحارِ
ثم أمسى مبرنطاً يقصد السيـ
ـن ويغزو مدينةَ الأنوارِ

* * *

والذي يبعثُ السرورَ ويدعو
كلَّ نفسٍ للزهو والاكبارِ
رجلٌ ما ازدهته فتنةُ باريـ
ـس وما في باريس من أسرارِ
ظلَّ في ذلك الحمىٰ مصرياً
عربيَّ الحياةِ والأفكارِ
كلما هبَّت الغواني عليه
ضاق ذرعاً بالغادةِ المعطار

يـزفـر الـزفـرةَ الـعنيفـةَ تـرمي
من لـظاهـا فحمَ الـدُّجى بشـرار
يـذكـر النيـلَ، والأحبـةَ بـالنيـ
ـلِ ويـشـدو بـرائـعِ الأشعـارِ!

* * *

كـرّمـوا نـابغيكمـوا واعـرفـوهـم
فـضيـاعُ الـنبـوغِ فـي الانكـارِ
فـزكـيٌّ مـبـاركٌ شـعـلةٌ فـي
مصـر تهـدي شبـابهـا كـالمنـارِ
قسمـاً لـو يُتـاح لي الـغـارُ كلـ
ـتُ بكـفـي جـبـينَـهُ بـالـغـارِ!

* * *

على البحر

(من شعر الصّبا قاله الناظم في الثالثة عشرة من عمره)

هـل أنتِ سامعـةٌ أنيني ... يـا غايـةَ القلب الحزينِ
يـا قِبلة الحب الخفـيِّ ... وكعبـة الأمـل الـدفينِ
أني ذكـرتـك بـاكيـاً ... والأفق مُغبّـر الجبينِ
والشمس تبدو وهي تغـ ... ـرب شبه دامعة العيـونِ
أمـسيـتُ أرقبُـهـا عـلى ... صخر وموج البحر دوني
والبحـر مجنـون العبـا ... بِ يهيـج ثائـره جنـوني
ورضـاكِ أنتِ وقـايتـي ... فاذا غضبتِ فَمَن يقيني؟!